الحداثة في فكر عبد الله شريط

أ.بن دحمان حاج
المركز الجامعي بغليزان

لقد تفاعل المثقفين العرب دوماً مع كل المفاهيم التي ينحتها الفكر الغربي، وكأن هذا الغرب هو بوصلتهم الفكرية الوحيدة ويتعاملون مع هذه المفاهيم حسب توجهاتهم الفكرية والعقائدية، وبالتالي يعالجون قضايا مجتمعاتهم ويحللونها على ضوء مدلولات هذه المفاهيم. لقد انقسم الفكر العربي الحديث إلى عدة تيارات علمانية، إصلاحية، وليبيرالية وغيرها وهذا وفق تعاملهم مع مفاهيم غربية مثل مفاهيم "النهضة" و "التقدم" و "التنوير". أما أبرز مفهوم عالجه الفكر العربي المعاصر فهو مفهوم "الحداثة"، بحيث نجد كل كتابات المفكرين العرب في هذه الحقبة تدور ولا زالت في فلك الحداثة، سواء في المشرق العربي مع كل من علي حرب أو الطيب تزيني أو نصر حامد أبوزيد وغيرهم، أو في مغربه مع كل من الجابري وعبد الله العروي وطه عبد الرحمن وغيرهم في المغرب الأقصى، أما في الجزائر فإننا نجد المفكر الجزائري عبد الله شريط*، قد تفاعل مبكراً مع هذا المصطلح في كتاباته، أي أنه قد عالج قضايا مجتمعه برؤية حداثية، تنجسم مع مدلولات وأبعاد هذا المصطلح كما تبلورت في الغرب. وهنا يحق لنا أن نتساءل: كيف عالج المفكر عبد الله شريط ذا التكوين الديني قضايا المجتمع الجزائري ما بعد الاستقلال بصفة خاصة والمجتمع العربي بصفة عامة برؤية حداثية؟ وهل هو من أنصار الأصالة أم المعاصرة أم يمسك العصا من وسطها؟

الحداثة في فكر عبد الله شريط

تتجلى الحداثة في فكر المفكر الجزائري المعاصر عبد الله شريط (1921ـــ2010) من خلال مؤلفاته العديدة التي دافع فيها الرؤية الحضارية الحداثية التي تشبع بها من خلال قراءاته الغزيرة والعميقة للفكر الغربي والإسلامي على حد سواء، باعتباره أحد المؤسسين للخطاب التنويري والعقلاني في الجزائر وأنه من المؤسسين للجامعة الجزائرية المعاصرة، وعمل لسنوات كأستاذ جامعي بقسم الفلسفة، أي أنه كان دائما على اتصال بالفكر الغربي دراسة وتأطيراً. فمن الطبيعي إذن أن نجده في كتاباته ومقالاته الصحفية يدافع صراحة أو ضمنياً عن أسس الحداثة الغربية، أي يدعو إلى الاحتكام إلى العقل، وإلى التقيد بالروح العلمية، خاصة الموضوعية، في تحليل القضايا الفكرية بدون تعصب أو تحيز، كما دعا إلى التفتح على فكر الآخر ونبذ الجمود والتقوقع على الذات أو على التراث. والجدير بالملاحظة أن منهج المفكر عبد الله شريط في تحليل ودراسة المسائل الفكرية هو منهج الاعتدال والوسطية، فهذا المنهج قد وسم كتابات عبد الله شريط بميسمه، وحول هذا المنهج في البحث والدراسة نجد الأستاذ موسى معيرش يلاحظ أن كتابات هذا المفكر يغلب عليها المنهج الجدلي الذي يعرض دائما للفكرة ونقيضها محاولا الوصول إلى توفيق، وإن كان الأستاذ معيرش قد لاحظ كذلك أن المفكر عبد الله شريط يحاول دوما الاسترشاد بابن خلدون أستاذه والذي كتب عنه في مجالات متعددة وتأثر به سواء أكان ذلك في ما يتعلق بفكره الأخلاقي بحكم أن أطروحة عبد الله شريط لنيل شهادة دكتوراه دولة في الفلسفة كانت حول" الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون"، أو في ما يتعلق بفكره السياسي الذي كان موضوعاً لأحد كتبه. حتى في توجهه السياسي لم يكن واضح المعالم حيث يقول عنه المفكر والمؤرخ أبو القاسم سعد الله رحمه الله، وذلك في معرض شهادته حول عبد الله شريط، أنه لم يكن قوميا ولا بعثياً ولكنه كان وطنيا ملتزما بوحدة الوطن وثوابته، فما هي القضايا الفكرية التي عالجها المفكر عبد الله شريط، وكيف تقيّد في هذه المعالجة بأسس الحداثة بالمنظور الغربي؟

لقد خلّف لنا الاستعمار الفرنسي عند رحليه عن الجزائر عام 1962 مشاكل لا حصر لها في جميع الميادين فكرية، وسياسية، واقتصادية، واجتماعية، ولكن الله تعالى قيّض لهذه الأمة مثقفين ساعدوها على تخطي هذه المرحلة المصيرية والحاسمة من تاريخها المعاصر، وذلك بما امتازوا به من رجاحة عقل وبُعد نظر وبما استعانوا به من أدوات المنهج العلمي في الأخذ بيد الأمة إلى برّ الأمان، ومن بين هؤلاء نجد المفكر عبد الله شريط.

1-الحداثة وقضية التعريب**

بعد التعرف على السمات العلمية ومنهجية التفكيرالتي نلمسها في مؤلفات المفكر عبد الله شريط، يمكننا الآن أن نتطرق إلى تحديد موقفه من قضية التعريب، وسيكون لهذه القضية حصة الأسد من هذه المداخلة لأنها القضية الأولى في فكر عبد الله شريط، باعتبار أنها أم المشكلات والقضايا التي طفت إلى السطح بعد رحيل المستعمر، وقد ناضل هذا المفكر من أجل أن يدلو بدلوه في هذه القضية، ولكن بمنهجية قلما نجد لها نظيراً. فنحن نورد موقفه من هذه القضية كدليل على المنهج الحداثي الذي استعمله في معالجتها.

في كتابه المعنون بـــ "نظرية حول سياسة التعليم والتعريب" الذي صدر سنة 1984م يؤكد فيه المفكر عبد الله شريط على أن التعريب في بلادنا ظل سنوات طيلة، ويقصد هنا سنوات الستينات، موضوع نقاش بين طرفين لا يفهم أحدهما الآخر، فكان شبيها،كما قال بنقاش الصم لا يسمع بعضهم بعضا وهذا دلالة على تعصب كل تيار إلى موقفه من هذه القضية، ولكن المؤكد حسبه أنه " لم يحصل نقاش هادئ بين معربين ومفرنسين في قضية التعريب بالخصوص، وما يكتنفها من جوانب وما تمتد إليه من أبعاد حضارية وسياسية وفكرية بالخصوص. فبقيت قضية يُقنع فيها المعرّبون معرّبين أمثالهم، و المفرنسين مفرنسين مثلهم، بحجج عاطفية في الغالب لدى الطرفين مدفوع فيها الجميع عن وعي وعن غير وعي بما يتوهمه مصلحة عامة "[1]. لكن هذا النقاش الأبكم والمبهم، كما يصفه، أدى إلى ضياع المصلحة الوطنية بسبب استغلال أطراف أجنبية هذه الهوة بين الطرفين وزادها عمقا واتساعاً، وفي هذا المقام يقدّم المفكر عبد الله شريط رؤيته حول هذا النقاش الذي يجب أن يكون في نظره بين أشقاء لا بين أعداء، وأن" يخاطب فيه أحد الطرفين الطرف الآخر بوصفه أخاً يخاطب أخاه في قضية عائلية ورثناها جميعا عن ظروف تاريخية فرضت علينا فرضا و لم يكن لنا فيها حيلة"[2]وذلك من أجل تغليب المصلحة الوطنية. وهذا الموقف في رأيي يعكس مدى تقيده بالمنهج العلمي القائم على الموضوعية وتجنب التسرّع في إصدار الأحكام والتعصب للمواقف في قضايا مصيرية.

أما في كتابه الآخر الذي صدر سنة 1981 م بعنوان " من واقع الثقافة الجزائرية" الذي يضم مجموعة بحوث ومقالات كتبت بين 1968 و 1970 م وهي تعالج قضايا وتطرح مشكلات من واقع الثقافة الجزائرية كما عاشها في فترة ما بعد الاستقلال إلى غاية نشر هذه البحوث والمقالاتوهو في تطرقه لهذه القضايا يحاول تشخيص العلل ووضع الأصبع على الدّاء، أكثر مما يحاول تقديم الدواء والحلول" لأن خطر أمراضنا في مرحلتنا الراهنة هو أننا نعيشها ولا نشعر بها"[3].

وإذا تساءلنا مع المفكر عبد الله شريط لماذا الثقافة؟ فإنه هو الذي يتولى الإجابة عن هذا التساؤل في مقال في آخر هذا الكتاب يحمل عنوان " لماذا العربية " فيرى أن الدولة الجزائرية الفتية بعد أن فرغت من الثورة الصناعية والتي تلتها الثورة الزراعية يأتي الدور الآن على الثورة الثقافية " أي ثورة التعريب، لأن الثقافة كما قال وزير الإعلام أحمد طالب الإبراهيمي، هي التعريب، والتعريب هو الثورة الثقافية، ولأنه بعد 5 ــ 7 ــ 1975م ينتهي العمل بالقانون الفرنسي ويحل محله قانون جزائري مائة في المائة"[4].إن الثورة الثقافية غرضها التصدي للغزو الثقافي الذي اشتدّ بعد الاستقلال وقويت شوكته، " ذلك أن الاستعمار بعد أن خرج بجنوده أراد أن يبقى فكره وتبقى ثقافته وآراءه. ولا نغالي إذا قلنا إن

هذه ظاهرة عامة في كافة البلدان التي ابتليت بالاستعمار في العصر الحديث، لكنها في الجزائر والمغرب العربي عامة، اتخذت طابعاً منظماً مدروسا تسنده جهات رسمية تخطط وتعمل له بدأب لإبقاء الفكر والثقافة الأجنبيتين بدعوى التفتح و المعاصرة، وما إلى ذلك من الصيغ التي تحمل في ظاهرها الرحمة و في باطنها العذاب"[5]، كما يكشف الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم في إحدى مقالاته " بأن هدف الاستعمار لم يكن يهدف إلى خنق العربية ومحو الشخصية الجزائرية وإحلال الفرنسية محلها فحسب، بل أيضا يرمي إلى الجهل وإسدال ستار الظلمات على الجزائر وفصلها على العالم العربي والعالم"[6].

ففي بداية هذا المقال يخص الحديث فيه عن المثقفين بالعربية، لأنه من جهة أولى هو، أي عبد الله شريط، واحد منهم بحكم ثقافته العربية الإسلامية، وأحد تلامذة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأحد خريجي جامع الزيتونة، ومن جهة ثانية إن المثقفين بالعربية هم المعنيون بالدرجة الأولى بهذه القضية وعلى عاتقهم تقع مسؤولية تعريب المؤسسات الإدارية والتربوية وغيرها. وإذا أردنا أن نتحدث باللغة العسكرية فهم القادة والجنود الذين يديرون هذه المعركة بإحكام.

إن عملية التعريب في نظره عملية معقدة وليست سهلة كما يعتقد البعض، وعليه إذا أريد أن يكتب لها النجاح عليها أن تمر بمرحلتين وكل مرحلة تتطلب جهد مضني من النقاش والحوار بين المثقفين بالعربية وحتى المتحمسين لهذه القضية، فالمرحلة الأولى هي مرحلة الحديث عن التعريب من حيث المبدأ وهي مرحلة تمهد للثانية والثانية هي مرحلة الحديث عن التعريب من حيث التطبيق. فهو يتساءل هل انتهينا من مرحلة الحديث عن التعريب من حيث المبدأ لكي نمر إلى مرحلة النقاش عن وسائل التطبيق؟ والصعوبة التي يحاول أن ينقلها إلينا أنها تكمن في أن المرحلة الثانية متوقفة على الأولى، بحيث إذا نجحنا ووفقنا في نقاشنا حول التعريب من حيث المبدأ ومعيار النجاح في هذه المرحلة الأولى يقاس بمدى تهيئة الجو النفسي والوطني لهذه القضية وإخراج المترددين والخائفين من ترددهم وخوفهم وزرع الحماس في نفوس من لم يكونوا يحملون شيئاً من هذا الحماس حول هذه القضية، أي تهييج العواطف التعريبية في الشعب وذلك بالمقالات الصحفية و بالمحاضرات وبالأحاديث والنقاشات، فإن النجاح سيكون بعد ذلك ممكنا في مرحلة التطبيق، أما " إذا كنا نتحدث عن التعريب من حيث المبدأ، ونحن نشعر شعورا غامضاً أو واضحا بأن مجرد هذا الحديث عن المبدأ سيجعل التعريب، عندما يدخل مرحلة التطبيق سيطبق من تلقاء نفسه، أو سيطبقه أناس آخرون غيرنا، أو سنطلب له متعاونين من إخواننا في المشرق وخبراء من منظمة اليونسكو، وأن دورنا نحن قد انتهى بانتهاء المرحلة الأولى المتعلقة بالمبدأ، فإن الوقت قد حان لندرك خطأ هذا الموقف"[7].

يعتقد المفكر عبد الله شريط أن جنود العربية كتب لهم الانتصار في هذه المعركة المقدسة في مرحلتها الأولى، أي مرحلة المبدأ، والآن جاءت مرحلة التفكير والعمل في إيجاد أسلحة المعركة وتهيئة أسباب النجاح لها. وهنا يتساءل الأستاذ عبد الله شريط عن طبيعة هذه المعركة وطبيعة السلاح الواجب لها؟

لا يجب في نظره أن نعوّل كثيراً من اجل النجاح في هذه المعركة على ما تقدمه الجهات الرسمية ممثلة في الحكومة ووزارة التربية والمفتشين وغيرهم من دعم مادي وما تصدره من قرارات، فهذا الدعم المادي والقانوني رغم أهمية فهو غير كاف، فالمفكر عبد الله شريط يعول على همّة معلمي العربية، فهذه الهمّة لها فاعلية في إنجاح عملية التعريب، و هنا نجده يقول لهم " أريد أن أقول بدون تحرج لإخواني المعلمين وأساتذة العربية، أنهم يجب أن يثوروا على أنفسهم، أعني أن يراجعوا كل الأساليب التي تعلموا بها هم العربية و أن لا يطبقوها في تعليم العربية لأبناء اليوم. و هذه الثورة لا تكون إلا برفع المستوى الثقافي العام لا في العربية والتخلص من أساليب عصور الانحطاط فقط، بل وأيضا برفع هذا المستوى الثقافي في ميادين

علما النفس والتربية الحديثة وفي التاريخ العام وتاريخ الأدب وتربية الذوق الجمالي"[8]. والأستاذ عبد الله شريط لا يكتفي بهذا فحسب، بل يدعوهم إلى الإقبال على تعلم لغة أجنبية فمن خلالها " يطلون على تجارب وعقليات الأمم الأخرى في عصرنا الحديث، وعلى الثورات المتلاحقة التي تجري في العالم كل عام في هذا الميدان التربوي حتى أصبحت البشرية اليوم في هذا المجال التربوي تنقسم إلى جزئين: جزء يثور فيه كل جيل على الجيل الذي سبقه ولكنها ثورة إيجابية لا تحطم ما بناه الجيل السابق، بل تتجاوزه إلى ما هو أعلى وأبعد وأعمق، وقسم يعيش على فتات مئات الأجيال التي عاشت منذ آلاف السنين لم تهدم منه شيئاً و لم تجدد منه جداراً و لم تزد في بنايته غرفة أو طابقاً أو تفتح فيه حتى نافذة"[9]. فالأستاذ عبد الله شريط يوجه أصابع الاتهام للمشتغلين باللغة العربية ويدرجهم ضمن الجزء الثاني الذي ذكرناه آنفا، أي الجزء الذي يرفض التجديد ويصد جميع الأبواب أمام التغيير ولا يحاول مواكبة الحضارة في زخمها وعنفوانها، بدليل " أنهم لم يحاولوا حتى تطوير شكل هذه الحروف المطبعية عما كانت عليه منذ عشرات الأجيال وآلاف السنين، فضلا عن محاولة تطوير قواعد اللغة عما كانت عليه أو إدخال فلسفة اشتقاقية جديدة إلى هيكلها حتى تصبح أكثر ثراء وطواعية"[10].

هذه النصوص التي أوردناها آنفاً تدل على أن المفكر عبد الله شريط كان حداثياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فإذا كانت هذه الكلمة تحمل معنى التجديد فإن المفكر عبد الله شريط قد دعا المعلمين إلى التجديد في التعامل مع اللغة العربية وإحداث ثورة كوبرنيكية سواء في أساليب تدريسها، ومن ثمة مواكبة الحضارة في مناهج التدريس، أو في التجديد في حروفها المطبعية، وأيضاً تطوير قواعدها، كذلك دعا المعلمين إلى الإقبال على علوم العصر أو ما تعرف بالعلوم الدنيوية، والتفتح على ميادين علم النفس والتربية والتاريخ والفن وعلم الجمال، لأن هذه العلوم من شأنها أن تساعد المعلم في مهنته، كما حثّ المعلمين على الإقبال على تعلّم اللغات الأجنبية وعدم التعصب والاكتفاء باللغة العربية وحدها فقط، لأن ظاهرة تعلم اللغات أصبحت ضرورية بحكم أنها تطلعنا على تجارب الآخرين وتمكننا من الاستفادة من تراثهم الزاخر بالعلم والمعرفة. وهنا تبرز واقعية و موضوعية الأستاذ عبد الله شريط، فإذا كان يعيب على المفرنسين والفرانكوفونيين تجاهلهم للغة الوطنية والحطّ من قيمتها بدعاوي مختلفة، فإنه في المقابل يوجه سهام النقد اللاذع إلى فريق آخر ينعته بدعاة الجهل والظلام وأعداء الحداثة، وهو فريق المعربين الذين يقتصرون فقط على اللغة العربية ويهدفون من وراء التعريب، الذي يعتبرونه مُقدساً، صد الأبواب أمام تعلم ودراسة اللغات الحية، فهم بسلوكهم هذا يقتلون العربية، أي يضرون بها أكثر مما ينفعوها، ولهذا فهو يدعوا إلى محاربتهم ومنعهم من ذلك، فهذه الدعوات والنصائح التي وجهها للمعلمين تنم عن فكر حداثي متفتح.

إن المفكر عبد الله شريط عندما يدعو إلى التجديد فهو في نفس الوقت يدعو إلى الثورة على القديم، أي الثورة على أساليب التدريس التي لم تعد صالحة لهذا الزمن، وإلى إعادة النظر في صعوبة وتعقيد قواعد اللغة العربية ومحاولة تسهيلها على الطلاب، أيضا المفكر عبد الله شريط كان حداثياً ليس لأنه دعا إلى التجديد، بل لأنه أيضا لم يكن متعصباً للتيار العروبي الذي ينتمي إليه باعتباره خريج جامع الزيتونة، هذه المنارة العلمية التي يعود إليها الفضل في حفظ اللغة العربية من الزوال في فترة زمنية كان الاستعمار الفرنسي يتربص الدوائر باللغة العربية والدين الإسلامي. قلت رغم أنه خريج جامع الزيتونة ومع ذلك دعا بكل موضوعية علمية إلى تجديد وتطوير اللغة العربية وجعلها تساير روح العصر، لأنه عصر حاثة وتجديد.

يفنّد الأستاذ عبد الله شريط الفكرة التي روجها، ليس فقط رافضي التعريب في الجزائر المستقلة حديثا، بل هي فكرة قديمة قدم الدراسات الاستشراقية، وأبرز مثال على ذلك المستشرق الفرنسي رينان، ومفاد هذه الفكرة هي أن اللغة العربية

عاجزة عن مسايرة التطور العلمي والفني الحديث، فهذا الاتهام بالعجز لا يجب، حسب رأي الأستاذ، أن يوجه إلى اللغة العربية في ذاتها، بل يجب أن يوجه إلى أصحاب هذه اللغة، ولا يجد حرجا عندما يعلن بكل صراحة ووضوح " أننا نحن الذين قعدنا بهذه اللغة العجيبة عن التطور و الرقي نظراً لاستعدادها للتطور، واستعدادنا نحن للإبقاء عليها كما هي. إننا نحن الذين أصبنا اللغة بالقعود عن التطور، وكل ما يوجه اليوم من تهم عن حق أو باطل، إلى اللغة العربية، إنما يوجه مباشرة إلى أبنائها العاجزين. إن اللغة العربية لو كانت لغة أمة أخرى من الأمم النشيطة المتحررة من التزمت لكان لها شأن آخر، بل ولكانت لهم أسرع قطار ينقلهم إلى العالم المتحضر"[11]. ولهذا يدعو الأستاذ عبد الله شريط إلى النهوض باللغة العربية، فمن غير المعقول أن نبذل جهودا كبيرة للرفع من مستوى حياتنا السياسية و الاقتصادية والاجتماعية ونتنكر في الوقت ذاته للغة العربية ونعاملها على أنها شيء لا يقبل التجديد والتطور، ويؤكد الأستاذ على أنه يجب أن نعمل جاهدين من أجل الرفع بمستوى لغتنا إلى مصاف اللغات الحية ولا نكتفي بالدفاع العاطفي عنها فهي" مثل كل أجزاء حياتنا الأخرى في حاجة إلى إعادة نظر في أساليبها وتراكيبها وخاصة طرق تدريسها بطريقة ثورية حقيقية تقفز بها إلى ما نطمح إليه من مكانة بين الأمم، وما نريد أن يكون لها من مكانة بين لغات العالم الراقية. إننا ما نزال إلى اليوم على تقليد أجدادنا في النظر إلى اللغة العربية إزاء اللغات القديمة التي عايشتها في عصر نهضتها فكانت لغتنا تفوقها، كاللغة الفارسية والرومانية القديمة والهندية وحتى اليونانية"[12]، ما نستخلصه من هذه الفكرة هو أن الأستاذ عبد الله شريط يرى أن مشكلة التعريب الأولى هي قصور همة أصحابها عن تطويرها وتجديدها وبث دماء جديدة في عروقها حتى يكون بمقدورها مواكبة التطورات الحضارية المذهلة الحاصلة في العالم. فالمفكر عبد الله شريط، في هذا النص يتساءل ضمنيا عن سر تطور لغات مثل الفارسية والرومانية والهندية وحتى اليونانية التي كانت متخلفة في زمن ذروة ازدهار اللغة العربية، وهذا السر يكمن في نظر المفكر عبد الله شريط في مفهومي "الحداثة" و"التحديث" اللذان أشرنا إليهما في بداية المداخلة، بمعنى أن هذه اللغات، في الوقت الذي كانت فيه تُطور حروفها وتُجدد قواعدها وتُدخل أساليب حديثة في تدريسها، وباختصار يمكن القول أنها كانت مواكبة لروح العصر الذي يتطلب التحديث والثورة على القديم، كانت اللغة العربية معادية للحداثة وتقف في وجه كل ما هو جديد، أي أنها بقية محافظة على طرق تدريسها القديمة، ومتمسكة بقواعدها كما وضعها عالم اللغة سيبويه لا تحيد عنها قيد أنملة، فلهذا السبب تخلفت ولذلك السبب تطورت اللغات الأخرى.

لكن السؤال المهم هو: يكف يكون هذا التجديد في كيان اللغة العربية؟ إن الجواب الذي يقدمه المفكر عبد الله شريط يكمن في أن التجديد والثورة في اللغة العربية يجب أن يبدأ من "قواعدها "، وإذا أردنا أن نعرف السبب فلنقرأ له هذا النص التالي:" إن المثقف العربي لم يتوصل اليوم حتى إلى أضعف الإيمان أو أحط درجات الثورة على نفسه، وهي أن يبدأ بالتخلص من الحشو الذي يثقل عنق اللغة العربية بقواعد تجريدية منطقية في الإعراب أصبحت تشكل اليوم أضخم عقبة في تعليم لغتنا لأبنائنا وتستنفد منهم أثمن الأوقات و أعزها في عصر هم أحوج ما يكونون فيه إلى صرف مواهبهم وأوقاتهم في تعلم كنوز المعرفة التي تنهبها الشعوب الحية نهباً، والتي بلغت الاتساع والتشعب والغزارة ما لم يعرفه تاريخ البشرية كله، وأصبحت سرعة التعلم اليوم تجعل الطفل الذي لا يتجاوز عشر سنوات في الشعوب الحية يعرف ما لا يعرفه " العالم" في الشعوب المنحطة، وفي عصر أصبح فيه الوقت الذي لا يستثمر في التعلم لا يعتبر وقتا جامدا فحسب، بل وقتاً يرجعك للوراء أكثر فتزداد توغلا في التأخر حين تحسب أنك واقف فقط"[13]. إذن الطابع التجريدي المحض لقواعد اللغة العربية وعدم مسايرتها لروح الحداثة يشكل في نظره عقبة كأداء أمام تطورها ورقيها. ولكي يكون عملياً في طرح أفكاره، يدعونا إلى الاطلاع بأنفسنا على ما يدرسه التلاميذ من قواعد وسنتحقق عندئذ من صدق أفكاره، وسنتأكد معه

أن هذه القواعد التجريدية التي يعاني التلميذ كثيرا في تعلمها واستيعابها، والتي برأييه تأخذ منه وقتا ثميناً، هي سبب جمود اللغة العربية. فهو يقول:" خذ أي كراس من كراريس أبنائنا في اللغة فستجد تسع صفحات من عشرة هي عبارة عن إعراب للضمائر البارزة والمضمرة أو المستترة في محل رفع ومحل جزم ومحل كسر، ويظل التلميذ يبحث عن هذه المستترات كلها أين هي، ولماذا اختفت، وما هي وظيفتها؟ وإذا كانت ترغب في أن تبقى مستترة ولا تخرج إلى الوجود أوتعلن عن وجودها فلماذا نبحث عنها ونعاملها كما لو كانت موجودة وحية. ولماذا نهتم بهذه الأشباح؟ وما هي الفائدة العملية التي تعود علينا من معرفة هذه المستترات؟ وما الذي يفيدني أن أعرف بأن القاضي إذا جاء فهو مرفوعولكن الرفع فيه مضمر في محل السكون، ولكن هذا السكون هو سكون في الظاهر فقط، أما الباطن فهو رفع؟ وقل مثل ذلك في آلاف الأسماء والأفعال، وأضرب حسابك كم يذهب من الوقت في هذه الفلسفة التجريدية على التلميذ الصغير، وكم تورثه من انحراف في التفكير"[14]. فهذه القواعد الشديدة التجريد هي كالجثث المبعثرة في طريق النمو العقلي والتربوي الصحيح للطفل.

ما يمكن أن نستشفه من هذا النص هو أن أهم وسيلة للتعريب هي مراجعة الموقف من قواعد اللغة العربية التي نعلّم بها العربية اليوم وأنها في اعتقاده لم تعد صالحة لأطفالنا وشبابنا. ولقد أشار من قبل مؤسس جمعية العلماء المسلمين الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى مشكلة جمود قواعد اللغة العربية عندما قال لشيوخ جامع الزيتونة:" لقد أتعبتم القواعد حتى صرتم كالقواعد(يقصد القواعد من النساء)، الشيء الوحيد الذي يجعل الأستاذ عبد الله شريط يتفاءل بالنجاح في الثورة على قداسة هذه القواعد هو شعلة الروح الثورية التي مازالت متأججة في نفوس الشعب الجزائري، والذي استطاع دائما وعلى مدار تاريخه الطويل أن ينتصر في كل معاركه رغم قلة الوسائل المتاحة، كان يعوّض قلة السلاح بما لديه من مثابرة وعناد وثقة بنفسه تمكّنه من تجاوز الصعاب والانتصار عليها، وهو الآن أمام معركة من أشد المعارك، " لأنها ليست معركة تقدمية سهلة، بل هي إنشائية أكثر، هي معركة لا يهدم فيها عدواً، بل يهدم فيها جزءا من نفسه، ولا يثور فيها على المستعمر بل يثور على أجداده في سبيل أبناءه، ويهدم فيها أمسه المظلم ليبعث منه غده المشرق. أو بعبارة أصح معركة يتخطى بها قرون الانحطاط ليقبض بيده على أصالته الأولى في ميدان اللغة كما فعل بان باديس في الميدان الديني. إن كل ما نتخبط فيه اليوم من أوحال القواعد اللغوية هي من صنع قرون الانحطاط، من صنع عقلية التعقيد المنطقي التجريدي في اللغة كما كان في الدين سواء بسواء"[15]. إن هذا النص طافح بالثنائيات المتناقضة التي تدل على جوهر الحداثة والتنوير، ففي هذا النص نجد المفكر عبد الله شريط يدعو إلى البناء مقابل الهدم، وإلى الشروق مقابل الظلمة، وإلى التهيؤ للغد مقابل الأمس، وإلى الاهتمام بحاضر الأبناء في مقابل تاريخ الأجداد، ونجده يدعو دعوة صريحة إلى التجديد للتخلص من عصور الانحطاط، كما يحثّ على استبدال المنهج العلمي العملي التطبيقي والتخلي نهائيا وبشكل عاجل عن المنهج التجريدي في تعليم قواعد اللغة العربية الذي لم يعد صالحاً لهذا الزمن.

بعد عرضه لمشكلة التعريب المشكلة الأولى في الجزائر والتي تتمثل في تجريد وجمود وقداسة قواعد اللغة العربية، يمر بعد ذلك مباشرة إلى تقديم الحلول ومن أهمها:

- تبني فكرة ابن خلدون في اعتبار اللغة وسيلة وليست غاية في حد ذاتها.
- أن نؤمن مبدئياً بضرورة هذه الثورة وبأنها حيوية لمستقبل لغتنا لمستقبل أطفالنا وشبابنا أي شعبنا المقبل.
- أن نبدأ منذ الآن، في نطاق القواعد الراهنة، بالتخفيف من تدريس هذه القواعد، والاعتماد بدلاً منها على التطبيق، وهذا حتى لا نقع في فخ التجريد الذي جمّد لغتنا، وذلك يكون بأن نعلم قاعدة أصولية واحدة في الأسبوع ونطبقها خمس

مرات في النصوص والأناشيء والإملاءات والتمارين التطبيقية، بدلا من أن نعلم الأطفال خمس قواعد في الأسبوع ولا يطبقون منها واحدة.

إن المفكر عبد الله شريط بقي وفياً لروح الحداثة التي يؤمن بها عندما قدم الحلول للنهوض باللغة العربية وجعلها لغة منافسة للغات الحية الأخرى، وهذه الروح تمثلت في الثورة على المناهج القديمة وتجديدها والاعتماد على المنهج العلمي المعاصر والمتمثل في التطبيق وعدم التمسك بالمنهج التجريدي.

2-الحداثة في المنهج:

لقد اعتمد المفكر عبد الله شريط على منهج حداثي في تحليل القضايا التي عرض لها. ومن خصائص هذا المنهج الاعتماد على العقل الهادئ المحلل ونبذ العاطفة الطفولية كما يسميها، والأحكام المرتجلة. وهو في ذلك متأثر في تراثنا العربي الإسلامي بشخصيتين فكريتين هما الجاحظ وابن خلدون، فالأول في مجاله الأدبي المسلح بالثقافة العلمية، والثاني في مجاله الاجتماعي المسلح بالتجربة.

ففي المقال الذي كان عنوانه " الحقيقة والزيف في مجتمعنا العربي" يتساءل المفكر عبد الله شريط في حيرة بالغة عن مدى نفعية المنهجين اللذين أضحايا منتهجين من طرف المثقفين العرب أو من أوساط الشعب في تحليل القضايا التي تعرض عليهم، هنا يتساءل هل يعقل أن نعتمد ونحن في القرن العشرين، عصر الحضارة والرقي على منهجين لا يعطيان نتيجة ايجابية ولا يدفعان عجلة تقدمنا إلى الأمام. المنهج الأول هو منهج الفخر والمدح الذي توارثناه عن أجدادنا منذ العصر الجاهلي، والمنهج الثاني هو منهج النقد الذاتي. إن المنهج الأول تكمن سلبيته، في نظره، أنه تجاوزه الزمن، أما المنهج الثاني فتكمن سلبيته في " أنه قد يحطم طموحنا إلى المعالي ويشعرنا بأننا أصغر من حقيقتنا"[16]، وفي كلتا المنهجين أي منهج المدح والهجاء ما زلنا، كما يقول، محرومين من الحكم العقلي الهادئ المحلل. بعد أن رفض الأستاذ عبد الله شريط هذين المنهجين، يدعو إلى ضرورة تبني المنهج الذي أرسى دعائمه كل من الفيلسوف الألماني هيجل ولفيلسوف العربي ابن خلدون. فكلاهما يؤسسان الوجود الحقيقي على أسس عقلية، فهيجل يعتبر أن كل وجود عملي لم يسبقه درس فكري فهو صائر إلى الزوال، ولا يدخل باب الحضارة. أما ابن خلدون من ناحيته يعتبر الوجود العملي هو آخر مرحلة من الوجود النظري، هنا عمل ابن خلدون على تجسيد نظرية هيجل، أي ضرورة تجسيد الوجود العقلي قبل الوجود العملي، بحيث يكون الوجود الاجتماعي عند ابن خلدون " الذي لم يركب مطية الفكر إلى الوجود الاجتماعي فلا أمل له في الوجود الحقيقي"[17]، ولهذا السبب وحده فقط كرس ابن خلدون، كما يرى الأستاذ عبد الله شريط، كل جهده في فهم المجتمع العربي ذهنياً لأنه لاحظ أن هذا المجتمع بقي محروماً قبله من هذا الوجود الذهني الذي هو الوجود الحقيقي. وإذا كان الفكر الخلدوني يوصف بالواقعية " فهي هذه الواقعية الفكرية التي افتقدها المجتمع العربي قبل ابن خلدون، أي افتقدوا وجوداً مدروساً ومحللاً، ينتقل به أو يرتفع من الوجود العملي إلى الوجود العلمي المعقلن"[18]. إن الغاية من الاستعانة بالمنهج الهيجيلي والمنهج الخلدوني هو ضرورة إعطاء المكانة اللائقة للعقل في حياتنا الفكرية والعملية. ففي كل من الميدان الحضاري والسياسي والثقافي، يحدث تصادم كبير جداً، كما يرى الأستاذ عبد الله شريط، بسبب أننا نتقبل ما نستورده من منتوجات مادية أو أفكار ونتعود عليه كما لو كان شيئاً طبيعياً قبل أن، وهذا هو الأهم، نتلقاه فكرياً وندرسه ونفهمه.

إذا أخذنا على سبيل المثال كيف يفسر الأستاذ عبد الله شريط التصادم في الميدان الحضاري بين مظاهر الحضارة التي غزت حياتنا اليومية ومخلفات البداوة التي لا زالت المعششة في عقولنا. فالرجل الذي يرتدي لباساً أوروبياً من آخر طراز وزوجته

كذلك وقد أتى المستشفى في سيارة أنيقة وليس على ظهر بعير من أجل أن تضع له زوجته مولوداً، حيث تستعمل في عملية التوليد آلات حديثة، والطبيب المولد نال درجة الاختصاص في هذا الفن من المعاهد الأوروبية، والمحيط المادي الذي يغمر هذه العملية كله محيط حضاري تستطيع أن تنافس به أرقى المصحات في العالم المتحضر، ولكن التساؤل أين يكمن التصادم بين البداوة والحضارة في حياتنا الفكرية واليومية؟ الجواب يكمن في أن هذا الشخص الذي أحضر زوجته للولادة سيتجهم وجهه ويعلوه العبوس وقد يصل إلى درجة الشتم والتهجم على من يخبره بأن زوجته قد وضعت أنثى. فنحن في عالمنا العربي تجتمع عندنا البداوة الفكرية والحضارة المادية والإفراط فيهما معاً، " فنحن لا نرضى من مستوردات الحضارة الحديثة إلا بما كان من آخر المنجزات التقنية الآلية. وفي نفس الوقت لا نتمسك من تقاليدنا الموروثة إلا بما كان موغلاً في التأخر الفكري ولكننا بدون أي حرج أو شعور بالإثم نجمع النقيضين تحت سقف واحد وتشمله في الشخص الواحد نفس البدلة ونفس الجسم والفكر"[19]، إن المشكلة التخلف الذي نعيشه، كما يراه المفكر عبد الله شريط، هو هذا التناقض الصارخ بين حالة خلفنا الذهني والجمود الفكري وبين مواكبة التطور الحضاري الحاصل في عالمنا. وعندما يقارن الأستاذ عبد الله شريط بين حالة العرب ودولة الصين الشعبية، ويتساءل لماذا لا يوجد هذا التناقض الصارخ في الحياة الفكرية الصينية؟ فإن الجواب بسيط جداً وهو أنه يكمن في دور العقل في كلا الجبهتين: جبهة التراث وجبهة المعاصرة، يقول الأستاذ عبد الله شريط حول هذه الفكرة:" في الصين بذل مجهود فكري على الجبهتين: جبهة التراث التقليدي بالتنقية والتقييم ودرس ما هو قابل للحياة وما هو غير قابل للحياة. وجبهة المستوردات الأجنبية بالدرس والتقييم ما يصلح منها الإنتاج، وما هو للمتعة المادية وحدها"[20]، فالصينيون قد استطاعوا إزالة التصادم الحاصل بين التراث التقليدي والمستورد المعاصر وذلك بفضل المجهود الفكري الكبير الذي قاموا به والذي يتمثل في إعمال العقل والتقييم الفكري بالتنقية وأخذ ما يلائمهم من كلا الجبهتين، حتى أن القضية عندهم لم تطرح كقضية تصادم، بل كقضية تكامل بين الجبهتين، وأبرز مثال معروف في العالم على هذا التكامل هو الجمع بين الطب التقليدي والطب الحديث. إن المشكلة في عالمنا العربي، حسب الأستاذ عبد الله شريط، تكمن في أن هذا المجهود الفكري الذي يقوم به رجال السياسة على المستوى الإيديولوجي، ورجال الفكر على المستوى الاجتماعي في دراسة الجانبين، أي الجانب التقليدي الذي هو مصدر الهوية والجانب المعاصر الذي هو مصدر القوة، غائب تماماً عن ساحتنا الفكرية، وهذا الغياب أدخلنا في دائرة التخلف والجمود، وأخرجنا من دائرة التاريخ.

الخاتمة

لقد كان المفكر عبد الله شريط مسكون بهاجس الحداثة في كل القضايا التي عالجها التربوية والاجتماعية والأخلاقية والإيديولوجية وغيرها، فهو بالرغم من أنه لم يؤسس لمشروع فكري عربي متكامل تطغى عليه الرؤية الحداثية شبيه بالمشاريع الفكرية العربية التي شهدها الفكر العربي والإسلامي الحديث والمعاصر كالمشروع الفكري لدى الجابري مثلا، حيث يلاحظ المفكر والمؤرخ أبو القاسم سعد الله رحمه الله وذلك في معرض شهادته في عبد الله شريط " إننا نجده ملاحظاً واصفاً أكثر منه مؤسس لنظرية أو مفكراً عميق الجذور رائداً لجيل من الباحثين في مجال التربية السياسية وبناء الشخصية الإنسانية" والسبب في نظرنا أن الفترة الزمنية التي عاش فيها لم تسمح له بذلك، فهي فترة استعمار أولا ثم فترة استقلال بعد ذلك وما خلّفه الاستعمار من مشاكل ثقافية وسياسية واقتصادية واجتماعية تتطلب حلول عاجلة، ومع ذلك فإن المفكر عبد الله شريط لم يقدم الحلول الجاهزة لهذه القضايا، أي بالاعتماد على التراث أو باستيراد لحلول من الغرب كما فعل بعض المفكرين، بل تسلح بالنظرة العقلانية للأمور، مقلبا للقضية من جميع أوجهها، نابذاً أن تكون العاطفة أو

الذاتية هي مصدر للحكم على الأمور، متقبلاً للنقد والرأي الآخر وبهذا المنهج ــ ما أحوجنا إليه في حياتنا الفكرية الراهنة ــ الذي أجلينا بعض من جوانبه في هذه المداخلة قد ترك المفكر عبد الله شريط رحمه الله بصماته على مرحلة طويلة من تاريخ الجزائر المعاصر.

قسم الهوامش

(*)–أحد المؤسسين للخطاب التنويري و العقلاني في الجزائر و أحد مؤسسي جامعة الجزائر المستقلة وهو أيضا أحد الإعلاميين الكبار الذين كونتهم الثورة الجزائرية بثقلها الوطني والإقليمي والدولي. ولد عبد الله شريط ببلدية مسكانة بأم البواقي بالشرق الجزائري 1921، التحق في صباه بكتاب القرية لحفظ القرآن الكريم، وبدأ تعليمه الابتدائي بمدرسة فرنسية في مسكيانة عام 1927 م . انتقل بعد ذلك إلى تبسة عام 1932 م وهناك درس بمدرسة جمعية العلماء " تهذيب البنين" على يد الشيخ العربي التبسي مدة سنتين (1932 ـــ 1934). توجه إلى تونس سنة 1938 ودرس فيها سنة واحدة، ثم توقف بسبب الحرب العالمية الثانية، وعاد إلى قسنطينة والتحق ببعض مدارسها. ولما انتهت الحرب سنة 1945 عاد مرة أخرى إلى تونس وانهي دراسته بجامعة الزيتونة ونال شهادة التطويع سنة 1946 م. سافر إلى المشرق عن طريق فرنسا سنة 1947 م بجواز سفر مزور، وهناك التحق بكلية الآداب قسم الأدب العربي، لكن تحول إلى قسم الفلسفة بنفس الجامعة وقد تخرج منها بشهادة الليسانس في الفلسفة سنة 1951 م. التحق سنة 1955م بالبعثة السياسية لجبهة التحرير الوطني التي تشكلت بعد اندلاع الثورة أسندت له مهمة الترجمة من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية. و قد كلف بعد إصدار جريدة " المقاومة" وجريدة " المجاهد" لسان حال جبهة التحرير الوطني بتحرير بترجمة المقالات المنشورة في الصحافة الدولية عن الثورة الجزائرية و ظل يمارس هذه الوظيفة حتى فجر الاستقلال سنة 1962م ، التحق بعد الاستقلال بجامعة الجزائر أستاذا بقسم الفلسفة وظل بها إلى آخر يوم في حياته. لقد وافته المنية يوم 09 ــ 07 ــ 2010. للمفكر عبد الله شريط مؤلفات في حقول معرفية مختلفة في الفلسفة والأدب وعلم الاجتماع والسياسة و الصحافة وغيرها، بلغ عددها ستة عشر (16) منها: –الجزائر في مرآة التاريخ1965 ــ –الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون 1975 ــ حوار إيديولوجي حول المسألة الصحراوية والقضية الفلسطينية 1982 ــ –مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الأيديولوجي في الجزائر 1986 ــ معركة المفاهيم 1981 ــ المنابع الفلسفية في الفكر الاشتراكي 1976 ــ –من واقع الثقافة الجزائرية 1981 ــ –نظرية حول سياسة التعليم والتعريب 1984 ــ حوار إيديولوجي مع عبد الله العروي وصدرت له موسوعة ضخمة حول الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية.

(**)–إن التعريب في اللغة العربية مشتق من "عرّب يعرّب تعريباً" ولقد "درج العرب منذ خروجهم من الجزيرة العربيّة في القرن الأوّل للهجرة على نعت الشعوب التي دخلت للإسلام بـــ " الشعوب المعرّبة أو تحديداً بـــ " المستعربة"، وهذا في مقابل الشعوب العاربة أي ذات الأصل العربي القحّ". وهناك من يقابل بين التعريب والتعجيم، فالتعريب يقصد به النقل إلى اللغة العربية من اللغات الأجنبية، بينما يقصد بالتعجيم النقل من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية. والتعريب نوعان: " التعريب اللساني ويقصد به استعمال العربية ألفاظاً أعجمية على طريقتهم في اللفظ والنطق فيحافظون على أوزان العربية والإيقاع العربي بما يطبعها بالطابع العربي، وهناك التعريب الاجتماعي الشامل الذي يشير إلى سيادة الفكر العربي والقيم العربية، فضلاً عن سيادة استعمال اللغة العربية في مختلف مجالات الحياة الإدارية والعلمية والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ولقد أنشأت أربعة مجامع لترجمة المصطلحات الأجنبية ونقلها إلى اللغة العربية وهذه المجامع هي: مجمع دمشق في 1919، مجمع القاهرة في 1932، مجمع بغداد في 1948، ومجمع عمان في 1976. ونظراً لأهمية

التعريب أقيمت عدّة مؤتمرات لمعالجة قضية التعريب: في الرباط في 1961، وفي الجزائر في 1973 وفي طرابلس في 1975.

1-عبد الله شريط نظرية حول سياسة التعليم والتعريب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 6.

2-المصدر نفسه، ص 7.

3-عبد الله شريط، من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 6.

4-عبد الله شريط، من واقع الثقافة الجزائرية،مصدر سابق، ص 183.

5-عبد الله ركيبي، عروبة الفكر والثقافة أولا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 6.

6-مولود قاسم نايت بلقلسم، مجلة الأصالة وتصدرها التعليم الأصلي والشؤون الدينية، العدد 17، جانفي 1974.

7-عبد الله شريط، من واقع الثقافة الجزائرية، المصدر السابق، ص 8.

8-المصدر السابق، ص 10.

9-المصدر نفسه، ص 11.

10-المصدر نفسه، ص 11.

11-المصدر السابق، ص 36.

12-المصدر نفسه، ص 36.

13-المصدر نفسه، ص 12.

14-المصدر نفسه، ص 13.

15-المصدر نفسه، ص 15.

16-عبد الله شريط، معركة المفاهيم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 143.

17-عبد الله شريط، معركة المفاهيم، مصدر سابق، ص 146.

18-المصدر نفسه، ص 147.

19-عبد الله شريط، معركة المفاهيم، مصدر سابق، ص 149.

20-المصدر نفسه، ص 150.